

التفكير على الحضاري في تكسوين اللغة وتطويعها الاستاذ محمد المبارك

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

وكانت السنة اي اقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله التي رواها الصحابة المصدر الثاني للاسلام عربية اللغة كذلك وهكذا ترافق الاسلام واللغة العربية منذ ذلك الحين وسارا معا عبر القرون فكانت اللغة العربية معبرة عن الاسلام وحضارته وكان الاسلام متخذاً من العربية وسيلة للتعبير عن عقيدته واحكامه واستمر ذلك حتى العصر الحاضر .

ثانيا : الارباط الجغرافي :

ولئن كان الاسلام قد عم السواد الاعظم من العرب في وقت مبكر فانه سرعان ما تجاوز الدائرة العربية الى ما هو اوسع منها فدخل بلادا وهم شعوبا ليست العربية لفتها فنشر العربية في قسم من هذه البلاد حتى اصبحت لفتها الوحيدة وذلك كبلاد الشام والعراق وشمال افريقيا وانضافت شعوب هذه البلاد الى الدائرة العربية وان كانت لبعضها سابقة صلة بالعروبة ثم تجاوز الاسلام هذه الدائرة الى بلاد امجمية اللغة فدانت شعوبها بالاسلام فكانت العربية بالنسبة اليها لغة الدين الجديد المشتمل على عبادات قوام شعائرها اللغة العربية وعلى معاملات

ان بين الاسلام واللغة العربية صلة وثيقة ولازما طويل الامد عميق الفور عبر الزمان وعلى مر العصور وفي آفاق الارض التي وصلا اليها وبلغا حدودها وليس التساؤل من وجود هذه الصلة فتلك بديهية مستقرة في الاذهان ولكن من طبيعة هذه الصلة واسبابها وجوانبها وتجليه لهذا الموضوع نعرضه من جوانب مختلفة ونحاول ان نبرز مواطن اللقاء وانواع الارتباط بين الاسلام واللغة العربية .

اولا : الارباط التاريخي :

اللغة العربية كما هو معلوم لغة معروفة في القدم استقلت عن اخواتها الساميات وتميزت منهن بخصائص واخذت صيغا واشكالا انفردت بها وظهر الاسلام فكانت هي اللغة التي حملت رسالته وعبرت عن مبادئه وتعاليمه فنزلت آيات القرآن الكريم بها حتى اتم الله آياته فكان القرآن الكريم الكتاب العربي المبين كما وصفه فنزله سبحانه في عدد من آياته :

« انزلناه قرآنا عربيا » 12 - 2 و 20 - 113
« اوحينا اليك قرآنا عربيا » 42 - 7 ، « انا جعلناه قرآنا عربيا » 43 - 3 ، « بلسان عربي مبين » 26 - 195 وآيات اخرى بهذا المعنى .

ليس لها في العربية حرف بصورها اصطلاحات خاصة كالباء المنقطة بثلاث نقط لرسم حرف ال (P) في الفارسية والتركية وغيرها من الحروف التي ليست في العربية .

وهكذا كان سببا في انتشار الكتابة العربية او الرسم العربي في دائرة واسعة جدا تشمل شعوبا كثيرة مختلفة اللغات فكان بذلك حدا ادنى من التفاهم عن طريق الكتابة والحروف وهذه ظاهرة اجتماعية لغوية ذات آثار بعيدة في تفاهم الشعوب وثقافتها وتعاونها تشبه ما عند الامم الاوربية التي تستعمل الحروف اللاتينية وتتشترك في عدد من المفردات .

وهكذا فان الاسلام كان سببا في انتشار العربية لدى نخبة عالية من ابناء الشعوب التي تدين بالاسلام والمنشرة في اقطار آسيا وافريقيا وفي انتشار عدد كبير من الالفاظ العربية في لغاتها وفي استعمال الحرف العربي وذلك كله يسهل تعليم اللغة العربية مع وجود الدوافع الدينية والثقافية لتعلمها وهي فعلا تعتبر اللغة الثانية في كثير من هذه البلاد . بل ان ثمة عددا كبيرا من المدارس والمعاهد والجامعات تعلم باللغة العربية او تحلها في المحل الاول بعد لغة البلاد في كثير من البلاد الاسلامية كإيران وباكستان واندونيسيا .

الارتباط الفكري والحضاري :

ان الاسلام اذ اتخذ من العربية لغته منذ ظهوره استعمل مفرداتها للدلالة على مفاهيمه الجديدة فاكتملت كثير من الالفاظ معاني جديدة حملها الاسلام وكثيرا من ما نسي المعنى اللغوي الاصلي وبقي المعنى الجديد كلفظ الجهاد والانفال والزكاة والجنة .

لغة خالدة لمفاهيم خالدة :

وثمة نقطة هامة لم يلتفت اليها الباحثون الالتفات الواجب ولم يولوها ما تستحق من العناية بل لعلم لم ينتبهوا اليها وهائلا امرضا بين يدي الاختصاصيين وقراء العربية عامة .

ان الاسلام جاء بمقائد ومفاهيم ثابتة لا تتغير ولا ينبغي ان تتغير ولكن اتى لنا ذلك واللغة تتطور

واحكام انما تؤخذ من مصادرها العربية في القرآن والسنة واقوال السلف وهكذا ظهرت احداث جديدة هامة نلخصها فيما يلي :

1 - أصبحت العربية لغة الثقافة بالنسبة الى الخاصة لنشأت طبقة من علماء الدين من الاحاجم تعلموا العربية وحذقوها ثم اتسع الامر فكانت لغة الثقافة بوجه عام ولم تقتصر على الثقافة الدينية اذ أصبحت لغة الحضارة الاسلامية في جميع ميادينها وتكون على مر العصور ذلك الانتاج الضخم في ميادين الفقه والعلوم الاسلامية واللغة والادب والفلسفة والتصوف والتاريخ والطب والعلوم اشترك في تكوينه ابناء البلاد التي دانت بالاسلام والتي غدت جزءا من الدولة الاسلامية ولو لم يكونوا عربا في انسابهم ولغاتهم .

2 - اثر العربية في لغات الشعوب الاسلامية :

وفي خلال هذا التمازج اللغوي والتفاعل الحضاري دخلت الفاظ عربية كثيرة في لغات تلك الامم التي دخلت في الاسلام سواء اكان من الالفاظ العبادات ام كانت من الالفاظ التي ادخل الاسلام مفاهيمها الجديدة كمصغات الله تعالى والمعاملات الفقهية والاحكام القضائية والتنظيمات الادارية والسياسية والمفاهيم الاخلاقية والدينية وشاعت هذه الالفاظ ودخلت في لغات تلك الاقوام .

3 - أصبحت اللغة العربية مصدرا تنهل منه تلك اللغات ما تحتاج اليه من الفاظ حضارية جديدة اما لفقدان هذه الالفاظ فيها او لتصورها عن توليدها او رغبة في جمال اللفظ العربي المبرع عنها .

وهكذا دخل من هذه الطريقتين كثير من الالفاظ العربية في اللغات الفارسية والتركية والكردية والسواحلية وغيرها بنسبة كبيرة .

4 - ونضيف الى ذلك امرا آخر ذا شأن كبير وهو شيوع الحرف العربي باعتباره اداة لكتابة لغات الشعوب الاسلامية فاصبحت اللغة الفارسية والتركية والاوردية والجاوية (لغة اندونيسيا والملايو) وغيرها تكتب بالحروف العربية وقد وضعت للاصوات التي

والأقل في اللغة العربية التي يستعملها الأدباء والكتاب وربما دخلت لفات الشعوب الإسلامية باعتبارها مصطلحات إسلامية باللغة العربية كهذه الألفاظ :

(العقد الفاسد، المساقاة، اللات والصفات، والفناء ووحد الشهود والمرضى والجواهر والدور والتسلسل وأمثالها) .

القرءان الكريم :

وقد كان القرءان العظيم عاملا قويا في كل ما تقدم لأن المسلمين اجمعوا على ان القرءان بنصه العربي المنزل المحفوظ حتى يومنا هذا هو وحده القرءان وان ترجمته الى أي لغة أخرى لا تسمى قرءانا وليس لها احكامه فلا تكون مصدرا للاستنباط ولا يتعبد بها بل لا يجوز ترجمته ولكن ترجمة معانيه بحيث تعتبر الترجمة تفسيراً له باللغة الأجنبية وبناء على هذا الأساس حرص المسلمون على تعلم القرءان بنصه العربي حفظاً أو حفظاً وفهماً وبقدر الطاقة واكثروا من تلاوته تعبداً بحروفه العربية التي اضطروا الى تعلمها فكان ذلك عاملاً هاماً في تقوية هذه الصلة بين الإسلام واللغة العربية وفي انتاج النتائج الكثيرة التي بينها فيما سبق من كلامنا .

ومن أجل هذا أيضاً كان من مداخل الشعوبية وطرائقهم إبعاد الناس عن الفصحى لاحتلال العامية مكانها والدعاية لترك الحروف العربية والكتابة العربية والسمي لالفاء النحو العربي وفساد ملكة اللغة وذلك كله يؤدي طبعاً الى إبعاد الناس عن الفصحى وإلى تفرقهم أما مختلفة وإلى تهديم هذا الجسر العظيم الذي يصل بينهم ومعهم الشعوب التي دانت بالإسلام وقرأت القرءان وتعلمته وتعلمت الحرف العربي بل اتخذته أداة للفتها .

وبهذه الدراسة يبدو لنا الطريقان : طريق التثنية والتطفل على الغير وطريق الوحدة وثبات اللات والتحرر وذلك هو طريق الحرف العربي واللغة الفصحى والقرءان العظيم المنزل بلسان عربي مبين .

ودلالة الألفاظ أو معانيها في تبدل مستمر في جميع اللغات ؟ وهنا نجد في اللغة العربية وحدها دون غيرها الحل لهذه المشكلة . ذلك ان من خصائص اللغة العربية ثبات الحروف الأصلية الثلاثة من كل مادة مهما يطرا على الكلمة من تبدل في اشتقاقها وصيغتها كحروف ع ل م فان جميع الألفاظ التي اشتقت أو يمكن ان تشتق من هذه المادة كالعلم والعلوم والعلماء والاستسلام والمعلومات والمعاليم والتعليم والأعلام وغيرها من الألفاظ المشتقة من هذا الأصل تشمل على جميع الحروف الثلاثة ويقابل ثبات الحروف الثلاثة ثبات المعنى الأصلي والمفهوم المشترك بين الألفاظ وهكذا تبدو خاصة بثبات الأصول في صورتها اللفظية ودلالاتها المعنوية وهذه الخاصة هي التي يتطلبها الإسلام لامكان تثبيت المفاهيم التي يريد تثبيتها في مبادئه وأحكامه مع بقائها واستمرارها في اللغة الشائعة المستعملة عند أبنائها دون ان تحدث فجوة واسعة بين الأصل اللفظي المستعمل وما انتهى اليه في صورته ومعناه وهكذا يبقى ابتداء العربية على صلة وثيقة وفهم صحيح للنص القديم مهما يطل العهد به . وأما اللغات الأخرى فان الألفاظ فيها يعثر بها التبدل والتحول في صورتها حتى تتغير حروفها وأصواتها فلا تكاد تعرف أصلها وفي دلالتها المعنوية كذلك وبهذه الصورة يصبح بين الفاظ النص القديم وما انتهت اليه هذه الألفاظ في تطورها بون كبير يؤدي إما الى جهل المعنى القديم أو الى الوقوع في خطأ جسيم يحمل اللفظ القديم على اللفظ الحديث أو المعنى الجديد .

فالفاظ الحق والمدعى والقضاء والحكم واليمين والبيعة والشاهد والرهن والأجل والعقد والشرط والخصم وغيرها كذلك من الفاظ العقائد والعبادات ثابتة المعنى ولا تزال مستعملة ومفهومة من الناس الى يومنا هذا .

مصطلحات جديدة :

وقد ظهرت بعد الإسلام مصطلحات لغوية في ميادين الفقه والكلام والتصوف والفلسفة والمنطق والسياسة والإدارة وأصبحت جزءاً من الثقافة الإسلامية وثبت الكثير منها في المعاجم اللغوية أو على